

الفائدة الرابعة والثلاثون:

ملازمة الطاعة حتى يأتي اليقين

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَنَا بَعْدُ:

❦ فَإِنْ مَلَازِمَةُ الطَّاعَةِ حَتَّى يَأْتِيَنَا الْيَقِينُ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَنْبَغِي أَلَّا نَغْفَلَ عَنْهُ؛ لِأَنَّ
الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيمِ، وَالْإِنْسَانَ يُذَكَّرُ فِي جَمِيعِ شَأْنِهِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرَوِيِّ بِآخِرِ عَمَلِهِ.
وَالَّذِي يَهْمُنَا أَنْ نَلْقَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ بِصَالِحِ الْعَمَلِ، حَيْثُ نَلْقَاهُ وَهُوَ رَاضٍ
عَنَا، انْظُرْ إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَبِيٍّ كَرِيمٍ؛ بَلْ هُوَ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ،
ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ
النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ» فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ
نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»^(١).

لتسلسله بالنبوة والرسالة، ولتسلسله في هذا النسب الشريف العظيم،
رسول ابن رسول ابن رسول ابن خليل الله عَزَّجَلَّ ومع ذلك يقول: {تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]؛ حرص كل الحرص أن تكون نهايته
بالعمل الصالح مع أنه من المسلمين، ومن ذروة أهل الإسلام.

وكان النبي ﷺ يحرص كل الحرص على أصحابه في هذا الأمر، فيأمرهم
بالعمل: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٢)، ويأتيهم بأحاديث القدر، ويقول:

(١) متفق عليه، البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧)، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»^(١)، ويقول: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(٢).

* وطبق في نفسه ذلك تطبيقاً بليغاً، فقبل موته خرج إلى أحد كالمودع للأحياء، والأموات، ثم رقى المنبر وجعل يعظهم، ويوجههم، كما في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في «الصحيحين»^(٣)، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُودِعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضَ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافُسُوهَا»، قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظَرٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وعند موته لم تفته لحظة إلا وهو يحرص ﷺ على الخير للأمة، ولنفسه.

* أما الأمة، فإنه لما نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا^(٤).

* وأما على نفسه، فإنه لما رأى السواك نظر إليه ففهمت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه يريد، ففي «صحيح البخاري»، قَالَتْ: دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَمَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنْ بِهِ، فَأَبَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ، فَأَخَذْتُ السَّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ، وَنَفَضْتُهُ وَطَبَيْتُهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنْ بِهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، فَمَا

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البخاري (٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، عَنْ عَائِشَةَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عَدَا أَنْ فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى». ثَلَاثًا، ثُمَّ قَصَى، وَكَانَتْ تَقُولُ: مَاتَ بَيْنَ حَاقَتَيْي وَذَاقَتَيْي (١).

فهذا نبينا ﷺ حرص كل الحرص على أن يأتيه اليقين، وهو على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، مع أنه في طاعة من قبل، ومن بعد.

وحرص كل الحرص أن يوجهنا، ويعلمنا حتى في هذا الوقت الحرج؛ بل طبق هذا في غيره، دخل على رجل يهودي - في الغالب أن بعض الناس قد لا يتفطن لهذا الأمر - والنبي ﷺ زاره، ووجده في النزع قبل أن يُغرغر، وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا فُلَانُ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ فَسَكَتَ أَبُوهُ. فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. - ففرح النبي ﷺ - فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ» (٢).

* ولما مرض عمه أبو طالب ذهب يعودوه ويدعوه إلى لا إله إلا الله، لكنه أبى أن يقول: لا إله إلا الله، وقال هو على ملة عبد المطلب.

كما في «الصحيحين» (٣)، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بَنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُخَيْرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «يَا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بَنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرَعَّبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْرِضُهَا عَلَيْهِ،

(١) برقم (٤٤٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٧٢٩)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،
وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ
أَنْهُ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} [التوبة: ١١٣] الْآيَةَ.

* ولما مرض الأنصاري دخل عليه، وقال: يا خال قل لا إله إلا الله، فعن أنس
بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالَ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَقَالَ: أَوْ خَالَ أَنَا أَوْ عَمِّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ
ﷺ: «لَا بَلْ خَالَ»، فَقَالَ لَهُ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، قَالَ: خَيْرٌ لِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» (١).

فالنبي ﷺ حريص أن يبقى الإنسان على طاعة حتى يلقي الله، بل في
حديث أبي عبد الله الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢) أنه قال: أتيت النبي
ﷺ فقال لي: «خُذْ مِنْ شَارِبِكَ، ثُمَّ أَقْرَهُ حَتَّى تَلْقَانِي»، فما زال أبو عبد الله ممتثل
لهذا الهدى منتظراً للقاء رسول الله ﷺ مع أنه كان متخوف من حديث سمعه
من النبي ﷺ، فقد سمع أبو عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ
قَبْضُ يَمِينِهِ قَبْضَةٌ، وَأُخْرَى بِالْيَدِ الْأُخْرَى، وَقَالَ: هَذِهِ هَذِهِ، وَهَذِهِ هَذِهِ، وَلَا أَبَالِي»
فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا.

* **فَالثَبَاتُ حَتَّى الْمَمَاتِ**، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ حِظُهُ كَحِظِ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى، فَقَدْ ضَرَبَ لَهُمْ نَبِينَا ﷺ مَثَلًا كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣)،
وَجَاءَ بَنَحُوهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي
أَجَلٍ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ، مَا يَبْنَوُ صَلَاةَ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٤٣).

(٢) برقم (١٧٥٩٣)، وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٨).

اليهود، والنصارى، كرجلٍ استعمل عمالاً، فقال: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ النَّصَارَى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، أَلَا، فَاتُّمُّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، أَلَا لَكُمْ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ، فغَضِبَتِ الْيَهُودُ، والنصارى، فقالوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلُ عَطَاءً، قَالَ اللَّهُ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنَّهُ فَضَّلِي أُعْطِيهِ مَنْ شِئْتُ^(١).

فكان النصر والعز لأهل الإسلام، أنهم عملوا حتى انتهت هذه الحياة، وانتقلوا إلى حياة أخرى، بينما اليهود عملوا وانقطعوا، والنصارى عملوا وانقطعوا فما استفادوا؛ لأن العمل بالخواصم. والفتن في هذا الزمن كثيرة إن لم يُسَلِّمِ الله **عَزَّوَجَلَّ** العبد، ومن أشدها فتكًا بالمستقيمين فتنة الحزبية التي تقوم على الولاء والبراء الضيق، والتعصبات للأفكار، والأراء المخالفة للكتاب والسنة، فالثبات الثبات على السنة، والبعد عن الحزبية التي تمسخ الفطر، وفيها تشبه بالمشركين، قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: ٣١-٣٢].

والحمد لله رب العالمين.

